التخييل السردي و البعد التاريخي داخل رواية عناق الأفاعي لعز الدين جلاوجي

الباحثة رشيدة مرسلي، جامعة طاهري محمد- بشار- الجزائر.
الدكتورة آغا عائشة، جامعة طاهري محمد – بشار- الجزائر

تمهيد:

إنَّ تاريخ الجزائر لازال مجهولاً عند الكثير، و خاصة الأجيال التي تلت جيل الاستقلال لذلك عمل الكثير من الأدباء إلى الاستعانة بهذه المادة و النهل منها؛ لكتابة تاريخنا بطريقة فنية تقدمه لهذه الأجيال بغية الحفاظ عليه و إعادة إحيائه و معرفة التضحيات الجسام التي قدّمها أجدادنا لنيل حرية لم يروها و لم يفرحوا بها. و من بين هؤلاء نجد عز الدين جلاوجي الذي تتميَّز جلُّ كتاباته بأنَّها مسّخرّة لخدمة هذا الوطن؛ و جاءت ثلاثية " الأرض و الريح" مجسّدة لهذا الانشغال و هذا الشغف بتاريخ و أمجاد الجزائر.

إن ما تتميز به هذه المجموعة هو السرد على طريقة ألف ليلة و ليلة، و اعتماد المبدع على مبدع ثان داخل المتن تروي له حبيبته تاريخ الجزائر و تطلب منه إعادة صياغته بشكل فني و جمالي، فيحوّل المادة التاريخية إلى عمل روائي، و في هذه الرواية لا تظهر حوبة (حبيبة المبدع الثاني) كما ظهرت في الروايتين السابقتين، لكنها تبعث له بطرد بريدي فيه مخطوط تاريخي مع رسالة تتمنى فيها أن يعيد نسج هذا المخطوط بطريقته الفنية فتقول له:" لكني أدرك يقينا أيضا أنك ستعكف على إعادة صياغته مع ما يتناسب مع لغة العصر، دون أن تمس بجوهر ما فيه من حقائق، و لا ما تقتضيه أمانة العلم."[1] ، و هذا المخطوط يحتوي على مائتين و أربع و عشرين صفحة، و قد احتوى على أحداث تاريخية قبيل دخول المستدمر الفرنسي بأشهر إلى ما بعد اعتقال و نفي الأمير عبد القادر هذه الشخصية التاريخية التي كانت من بين أهم الشخصيات الرئيسية في هذه الرواية. و هذا لا يعني أن المبدع قد أصبح كاتبا ثانيا للتاريخ و لكنه يجعل منها خلفية لأحداث روايته يعود إليها بين الفينة و الأخرى فهي عملية ذوبان بين الخيال و الواقع و هو ما يعرف بالتخييل التاريخي: " و هو من

[1] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، دار المنتهى للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2021 ،ص 9.

نتاج العلاقة بين السرد المعزّز بالخيال، والتاريخ المدعّم بالوقائع"[2]، و هو بهذا عزّز المتخيل الروائي بالوقائع التاريخية و مزج بينهما لدرجة التماهي.

في نهاية الجزء الثاني من ثلاثية الأرض و الريح "الحب ليلا (في حضرة الأعور الدجال)" كانت الثورة الجزائرية قد انتصرت على المستدمر الغاشم، و عمَّت الاحتفالات بالاستقلال و أصبح القارئ مهيئا في الرواية الثالثة لسماع حكايا ما بعد الاستقلال، إلاَّ أن الكاتب يقفز به إلى ما قبل دخول فرنسا و بالتحديد إلى وقت حكم الداي حسين؛ فيكسر أفق القارئ بعد أن عوده في الروايتين السابقتين على تتابع الأحداث زمنيا، و يتغير مجرى الأحداث.

ولدراسة وتحليل هذه الرواية ارتأينا التركيز على رمزية الشخصيات المتخيَّلة، و كيف وظفها المبدع لخدمة خطاب مثل هذا و كيف دمجها مع الشخصيات التاريخية الحقيقية؟ ثم قمنا بتسليط الضوء على الزمن و المكان إذ تشكل هذه الرواية استرجاعا زمنيا كليًّا لأنها كانت آخر رواية في الثلاثية سردًا لكنها كرونولوجيًا الرواية الأولى، لذا تتبعنا الاسترجاع (analepse) في هذا الخطاب و ربطنا بين المكان و الزمن في هذه الدراسة لتلازمهما و حسب وجهة نظرنا رأينا أن هذا الربط يعطي جمالية أكثر لتمازج التاريخي و المتخيل هنا.و قد اخترنا المنهج الوصفي التحليلي في هذه الدراسة؛ مع الاستعانة بالمنهج التأويلي و ذلك من أجل فك بعض الرموز و تأويلها.

***النصية المحاذية:* (Paratexualité)**

لقد تطورت آليات تحليل النصوص، و لم يعد النص هو سيّد التحليل بل طفت على سطح الدراسات النقدية نصوص أخرى محيطة به لا تقل أهمية عنه، و كان الفضل في ذلك لجيرار جينيت في كتابه " أطراس" و هذا ما أسماه النص الفوقي " l'hypertextuel " إذ يقسم العلاقات العبر نصية (transtextuelles)[3] إلى خمسة أقسام من بينها النصية المحاذية

[2] عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي (السرد، و الإمبراطورية و التجربة الاستعمارية)، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، دار الفارس للنشر و التوزيع، الأردن،ط 2011 ،ص5.

[3] Gérard genette, palimpsestes la littérature au second degré, Ed. Seul, 1988 ¨P14.

(paratexualité)[4] التي تهمنا في هذا البحث و هي تشمل العنوان الرئيسي للكتاب،و العناوين الفرعية و ما بين العناوين و المقدمات و الحواشي.....هلم جرّا و هذا يشمل كل ما يحيط بالنص الأصلي.

ورواية عناق الأفاعي غنية بهذه النصوص المحاذية للنص الأصلي، و يشكل العنوان أهم عتبة في هذا النص لذا ارتأينا التركيز عليه فـ "*لا يمكننا الانتقال بين فضاءاته المختلفة دون المرور من عتباته و من لا ينتبه إلى طبيعة و نوعية العتبات يتعثر بها* "[5] ؛ فالكاتب لا يضع عنواناً عبثياً بل يتخيّر ألفاظه و يعتني بها أيّما اعتناء لأنها هي أول عتبة تواجه القارئ، إمّا تجذبه و تستفزه فيغوص في أعماق النص بحثاً عن أسراره أو تنفره منه فيجافيه. لكن المفارقة في هذه الرواية أن المبدع انطلق من نص موازٍ المتمثل في المخطوط الذي أهدته له حوبة؛ حتى ينسج عليه أحداث روايته، و قد حمل هذا النص عنواناً مغايراً لعنوان الرواية فجاء اسمه كالآتي " حكاية شامخة و شامخ الأخوان في قتال ياجوج و ماجوج الجنيان و من ساندهما من شرار بني الإنسان"، فهذا المخطوط يمثل النسخة التاريخية من الرواية؛ التي أراد المبدع إطلاعنا عليها و هي بدورها متخيّلة إلاّ أنه أراد أن يُوهم القارئ من البداية بتاريخيتها و واقعيتها، فجعل الحكي يسير بشكل متوازٍ في ذهن المتلقي؛ و هو بهذا يشّد القارئ أكثر إلى الحبكة التي نسجها بين النصّين؛ و هذا لا ينفي وجود وقائع حقيقية و شخصيات وطنية من الواقع داخل الرواية، لأن المتخيّل التاريخي " لا يحيل على حقائق الماضي، و لا يقرّرها و لا يروّج لها، إنما يستوحيها بوصفها ركائز مفسّرة لأحداثه ..."[6]. أمَّا عناق الأفاعي فهو عنوان مثير للقارئ لا يقف عنده بل يجعله ينساب إلى داخل الرواية علَّه يجد تفسيرا لهذا العنوان، عناق الأفاعي هي استعارة عن تحالف لأعداء الجزائر فيما بينهم أعداء الداخل و أعداء الخارج؛ وبتتبع أحداث الرواية يكتشف القارئ مدى خطورة هذه الفئة على الوطن،

---

[4] عبد الملك أشهبون، عتبات الكتابة في الرواية العربية، دار الحوار للنشر و التوزيع، سورية، ط1، 2009، ص 28.

[5] عبد الحق بلعابد، *عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، تقديم د.سعيد يقطين ،الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1 1429/2008 ص15*

[6] عبد الله إبراهيم، التخيّل التاريخي: ص 5.

و يُظهر الكاتب حجم خطورة عدو الداخل و لولاه لما انتصر عدو الخارج، و العنوان هنا يحيلنا على أكبر خيانة أدت بالجزائر إلى الهاوية؛ فينطلق القارئ في رحلة بحثٍ، عن هذه الأفاعي و كيف تمكنت من نفث سُمها داخل جسد هذا الوطن، ورحلة تتبعٍ لمقاومة هذا الشعب التي لم و لن تتوقف و هي متواصلة مادام في هذا الوطن أحرار يسري في دمهم حب الجزائر، و قد ربط بين العنوانين بحرف العطف " أو" و يحمل هذا الحرف دلالة كبيرة إذ استعمله المبدع للتأكيد على تفضيله للعنوان الثاني المرافق للمخطوط فجاءت " أو" بمعنى " بل" [7]، و هذا يحيلنا على قيمة هذا المخطوط رغم أنه من محض خيال المبدع؛ و إن كان يتحدث عن الأفاعي لكن حكاية شامخة و شامخ هي الأقوى و هي الأهم؛ و إذا ما اعتبرنا أن هذا المخطوط عبارة عن هامش داخل هذا المتن فإن جاك دريدا " يرى في الهامش على أنه نص آخر..."[8]، هذا النص الذي جاء هامشياً أو كان يبدو كذلك، طغى على الأحداث و سيطر عليها و أصبحت حكاية شامخ و شامخة هي الأصل في الرواية و هي الشخصية الرئيسية بامتياز.

الشخصية من التاريخي إلى المتخيل:

الرواية هنا و إن كانت ترصد لنا تاريخ الجزائر؛ فهذا لا يمنع من وجود عنصر الخيال و التشويق اللَّذان تتميّز بهما الأعمال الفنية بصفة عامة؛ و هذا ما يسمى بالتخيّل التاريخي الذي نجده في " منطقة التخوم الفاصلة بين التاريخي و الخيّالي، فينشأ في منطقة حرّة ذابت مكوّناتها بعضها في بعض، و كوّنت تشكيلاً جديداً متنوّع العناصر." [9] فالمبدع استحضر التاريخ و نسج حوله نصَّه، إذ تظهر شخصية شامخة حزينة مهمومة، بسبب غياب خالها الرَّايس حميدو هذه الشخصية التاريخية التي أحالنا عليها المبدع؛ و لم يعط القارئ عنها إلاّ الشيء القليل لكن لها دور و رمزية جعلتها شخصية مركزية داخل المتن، و هنا نجده يعتمد على تقنية التكثيف؛ فيشير إلى الشخصية التاريخية و يترك مهمة البحث

---

[7] أبو الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، المجلد الثاني(حرف الألف 2)، بيروت، ط1، 2006، ص 326.

[8] عبد القادر فيدوح، تأويل المتخيّل،(السرد و الأنساق الثقافية)، صفحات للدراسات و النشر و التوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2019، ص313.

[9] عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي، ص6.

العميق عنها للقارئ، فالرَّايس بحارة محارب بفضل قوته و حنكته كانت الجزائر تسيطر على البحر الأبيض المتوسط، و قد توفي في معركة مع الأمريكيين و قبل وفاته أوصى جنوده بعدم ترك جثته للأعداء و رميها في البحر، إلاَّ أن الناس لم يصدقوا أو بالأحرى رفضوا فكرة وفاة رمز مثل الرَّايس و بدأت القصص و الحكايا تحاك على هذا البطل، حتى شاع بينهم أنّ المغوار لازال حياً يرزق، مما أعطى أملا لشامخة و أصبحت تخوض البحار بحثاً عنه لعلها تجده و تُرجع لهذا الوطن هيبته؛ لكنها الخيبة التي لم تفارقها طوال الخمسة عشر سنة. و شامخة ما هي إلاَّ رمز للجزائر التي وصفها قائلاً " سحبت شامخة غطاء رأسها و رمته بعيداً دون مبالاة، جمعته نانّا دون أن تحول نظرها عن شعر سيدتها الأسود المتهدل على كتفيها و قد تناهى منه صوت أمواج هادرة" [10] فهذا الاسم يرمز للعزة و الشموخ الراسخين في هذا الوطن، و حزنها على الرَّايس يمثل حزن الجزائر قاطبة " كان يخوض معركة ضد الأسطول الأمريكي و البرتغالي قريباً من الشواطئ الإسبانية ... و كان مقتله طعنة في قلب الأمة...و مذ ذاك و شامخة تنتظر عودته، يلقاها أحيانا و دون أن تملأ منه عينيها يختفي...لكنه كشعاع كان ينفلت و يظل يعلو إلى عليّين."[11] ؛ رغم أن وجود شخصية الرَّايس داخل هذه الرواية كان مجرد طيف إلاَّ أن دلالتها كان أكبر من ذلك بكثير؛ فهو رمز القوة و المقاومة و رمز للرجولة. فالمبدع يوهم القارئ بحقيقة شخصية شامخة خاصة عندما بيّن قرابتها لشخصية الرَّايس، و بالتالي هذا الدَّمج بين شخصية متخيّلة مع شخصية تاريخية يضفي عليها واقعية لا تترك للمتلقي داع للشك في حقيقة هذه الأحداث " حيث تقوم الشخصية الرئيسية بمجرد دور محور مركزي خارجي تنمو حوله الأحداث، و حيث تستطيع أن تبرز نفسها بمجرد صفات إنسانية عامة تكسب تعاطفنا الإنساني لأن بطل الملحمة هو الحياة ذاتها و ليس الفرد."[12] فركّز الحكي على شامخة المتخيّلة

---

[10] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص15.

[11] نفسه، ص21.

[12] جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، وزارة الثقافة و الإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط2، 1986،ص36/35 .

و جعلها واقعية داخل المتن؛ بينما جعل شخصية الرَّايس حميدو التاريخية شخصية متخيّلة و قلب الأدوار، إلاّ أن الرَّايس شكَّل أيقونة تدور حولها الأحداث.

ثم تظهر شخصيات ثانوية مثل مسرور ابن عم شامخة ذاك الفتى الوسيم و الأنيق المتيّم بها؛ دون أن تبادله نفس الشعور و ذلك لسطحية تفكيره و تفاهته فهو فتى سلبي و بقي بهذه السلبية حتى بعد دخول فرنسا ؛بل و الأدهى أنه كان في صف الخونة، و بعد ذلك نجد معلمها أبا حمزة القرطبي و هي شخصية متخيلة؛ تمثل الفئة المثقفة المتعلمة و قد مرَّر جلاوجي من خلال هذه الشخصية رسالة مفادها أنَّ هذا المجتمع كان متحضّراً عكس ما روَّجت له فرنسا؛ بأنها جاءت لجلب الحضارة و التقدم لهذا الوطن، فقد كان القرطبي يلقي دروسا في الفلسفة و يناقشها مع طلبته " ...درسه اليوم في كتاب تهافت التهافت، إنه من مريدي ابن رشد."[13] و هذه إشارة لدرجة الرقي و التقدم التي كان عليها المجتمع الجزائري، و يكفي أن نعرف أن نسبة الأمية في الجزائر قبل دخول فرنسا كانت 5%، و القرطبي رجل صادق تحبه شامخة و تقدره كثيرا ثم تتسارع الأحداث لتنتقل بنا إلى قصر الدَّاي حسين و ما تعرض له من مؤامرات من طرف صهره إبراهيم آغا؛ الذي تحالف مع اليهود و الجارية اليهودية (آرئييل) المتنكرة باسم منارة التي خدعته بإسلامها " ولم تكن هي في غرفتها سوى قائمة تصلي و قد غطى حجابها كل بدنها غير وجهها و كفيها" [14] و حاكت المكائد هي و إبراهيم آغا رغم جهله و عدم معرفته بحقيقة ديانتها؛ و قضوا على أهم قائد عسكري في الجيش الجزائري يحي آغا و بالتالي سهلوا من مهمة العدو الفرنسي و اليهود في احتلال الجزائر، و إن كان الكاتب يسرد حقائق تاريخية وقعت فإنه هنا لا يعرّفها و لكنه يبحث " في طيَّاتها عن العبر المتناظرة بين الماضي و الحاضر..."[15] ، و صوّر للمتلقي تفريط الداي حسين في الجزائر و بيّن له حجم الخسارة التي كبدها للجزائر بعد استسلامه، إذ كانت إمكانيات هذا الوطن كبيرة جداً تمكنه من الدفاع عليه في وجه أعتى القوى " قبل المغرب كان الجنرال الدوق دو روفيغو و القس و كبار الضباط يقفزون فرحاً، و هم يقفون على أعتاب الميناء و قد رست

[13] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص 25.

[14] نفسه، ص 65.

[15] عبد الله إبراهيم، التخيّل التاريخي، ص5.

فيه أربع سفن عملاقة، بينما امتزج على ملامح كوهين فرح يشرق من وجهه و لعاب يتسايل من جانبي شفتيه، التفت إليه الجنرال الدوق دو روفيغو و عانقه بحماس كأنما لا يعرف ما فعل، و راح يصيح: -إننا في الجنة، إننا في الجنة يا صديقي يا حبيبي...- كوهين سأحيطك بسر، لا أريد أن تحرص على كتمانه، لأني أعرف يقيناً بأنك ستموت بعد سماعه، تصور ماذا شحنا في هذه السفن، شحنا ثلاثين ألف بندقية حديثة جداً لم يستعملها الأغبياء لحربنا...و خمسا و عشرين مليون قطعة ذهبية...و سبع أطنان من الذهب...و أكثر من مئة طن من الفضة، و..."[16] فلقد خان الجزائر و باعها بمقابل سلامته هو و حاشيته و بعض الشروط من أجل حفظ ماء وجهه أمام هذا الشعب و التاريخ؛ فوقع معاهدة العار. فهذه الرواية بقدر ما تحكي عن ماض فهي تعطي دروساً و عبراً للأجيال القادمة؛ و تنبهها للأفاعي التي لازالت تتربص بهذا الوطن. و لم يلتزم العدو بمعاهدته مع الداي و ارتكب جرائم يندى لها الجبين في حق الجزائريين " لوح الدوق دو روفينغو للرتل كي يتراجع، ابتعد صخبهم و ضجيجهم و كاد يهدأ، أشار إلى بعض جنوده الرابضين خلف المدفع، و اندفعت القذائف تصب حمما على الأبواب التي عجلت تتهاوى مستسلمة، و خلفها سقطت مئات الجثث، و تعالى صياح المئات داخل الجامع تجأر مستغيثة."[17] مجزرة جامع كتشاوة كانت أولى جرائم المستدمر في الجزائر و هي بالتأكيد لم تكن الأخيرة، و مع كل هذه الأحداث فإن المبدع هنا يمثل الجماعة و يتكلم باسمها معريّا فرنسا، التي جاءت بثوب السفاح لتبيد هذا الشعب، و قد وظف المبدع هذه الوقائع و نسج من خلالها حكايا متخيَّلة تتمثل في علاقات الشخصيات و الحوار الذي دار بينها و ذلك " أن الرواية عمل تخييلي يوهم بالواقع و لا يعكسه، و إن كان يتجاوزه، و يتمثل التجاوز على مستوى الصياغة و بناء الشخصية و رسم الحدث"[18]. كل هذه الأحداث يتتبعها السارد بمرافقة شامخة الموجودة في كل مكان فهي الجزائر؛ التي

---

[16] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص171/170

[17] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص 152.

[18] آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية (من المتماثل إلى المختلف)،دار الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، المدينة الجديدة، تيزي وزو، ط2، ص 53 .

عاشت كل هذا الألم في كل شبر من هذا الوطن، و مع كل مجزرة كانت واقفة تدافع أحيانا و ترصد أحيانا و تسجل أحياناً أخرى.

و قد شكلَّت شخصيتا اليهودي كوهين و الأشقر دوراً مهماً داخل هذا المتن، و قد مثلتا العدو الأول للوطن؛ الذي كان يسعى وراء خراب و إبادة هذا المجتمع، فالأول شخصية حقيقية كان له دور كبير في سقوط الجزائر التي احتضنت شعبه بعد أن تعرض إلى شتى أنواع التعذيب والإبادة الجماعية في الأندلس؛ و كافئها بالخيانة أما الثاني فهو فرنسي جاء لينتقم من الجزائريين ويثأر لقومه من أحفاد الرَّايس حميدو الذي كان مسيطراً على البحر الأبيض المتوسط، و من هنا تبدأ صورة الأفاعي تتشكل عند المتلقي، و إن كانت عملية إعادة نسج هذه الوقائع ليست بالأمر اليسير لأن " الكلام على الكلام أصعب كما يرى التوحيدي، لأنه يضيف و ينقص و قد ينسى بل حتى يتجنى، من منطلق الحرية التي يملكها الفنان"[19]، فهذه الأحداث حقيقية لكن المبدع أعاد حبكها متخيلا ما دار بين الشخصيات من حوار و ما كان يشعر به كل واحد؛ على سبيل المثال الجنرال الدوق دوروفيغو" ...و تمتم لاعنا في سره: الويل أي نصر هذا الذي يذبح فيه العزل الأبرياء"[20] هذه الشخصية المتناقضة هو يأمر بالتقتيل و التنكيل بالجثث؛ ثم يندم على ذلك مما يعطي انطباعاً لدى القارئ بأنها شخصية مضطربة إذ نجده في موقع آخر يعطي أوامر بإبادة الجميع في مجزرة قبيلة العوفية " فعلا جنودي مجانين، كانت تعليماتي و نحن ننطلق لقبيلة العوفية هي كما يلي: كل شيء حي يجب أن يكون مآله الموت، لم يكتفوا بإبادة الجميع، بل حملوا إلي كثيراً من الرؤوس فوق أسنة رماحهم..."[21] ؛ و هذا ما لمسناه مع أغلب الجنرالات داخل الرواية شخصياتها مضطربة بين تأنيب للضمير و وحشية و حقد على هذا الشعب الأعزل؛ مثل الجنرال دي ميشال و غيره.

وقد كانت شامخة تتعقب المقاومة انطلاقا من العاصمة إلى سهل متيجة حيث حدثت مجزرة العوفية مروراً بالبليدة و بمقاومة أهلها بقيادة الحاج محمد بن زعموم، ترصد من خلالها جرائم المستدمر المستبد فهي بقدر ما تقف على وقائع حدثت بالفعل إلاَّ أنَّ خيال

---

[19] نفسه، ص52.

[20] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص174.

[21] نفسه، ص208.

جلاوجي كانت له الكلمة في حبك التفاصيل، خيال يصور لنا حياة المقاومين علاقاتهم حواراتهم تجعل القارئ يعيش وسط هؤلاء الشجعان، و كأن الروائي أبىَّ إلى أن يعرّج على هذه المقاومات الشريفة و يكرّمها قبل أن يصل إلى بطل المقاومة الشعبية الأمير عبد القادر.

فشامخة في رحلتها هذه كانت متابعة من طرف الأشقر الذي حيثما ذهبت حلَّ وراءها؛ يريد الانتقام منها لأنها ابنة أخت الرَّايس حميدو أو بالأحرى هي الوطن الذي يلاحقه العدو و يريد قتله في نفوس الجزائريين، و كان يفشل دائماً في الوصول إليها، وهنا تتجلّى رمزية هاتين الشخصيتين الأولى تمثل الجزائر و مقاومتها و شراستها و الثانية تمثل الجنس الأوروبي الطامع في خيرات هذا الوطن، و هذه أيضاً رسالة أخرى لهذا الجيل فالطمع لازال قائماً إلى الآن.

و يصف لنا شخصية الأمير فيقول" تعلقت العيون بالفتى و قد تجاوز العشرين قليلاً، يجلس إلى جانب والده مطرق الرأس، أميل إلى النحافة، ذي ملامح بهية، بياضه أميل إلى السمرة، في أنفه حدة، و في عينه دعج و ملاحة..."[22] و نسج حبكة حول هذه الشخصية فجعل الكثير من الأحداث تمزج بين الواقع و المتخيّل، بدءاً بلقائه بشامخة هذه الشخصية المتخيّلة و هذا ما اصطلح عليه بول ريكور بـ " الهوية السردية"[23]، و هي" البؤرة التي يقع فيها التبادل و التمازج و التقاطع و التشابك بين التاريخ و الخيال بوساطة السرد..."[24]. هذا البطل الذي لازال يتعرض للظلم و التعتيم على حقيقة ثورته، و على حقيقة صدقه في جهاده، و جلاوجي هنا جاء ليرد له اعتباره، و ليسلط الضوء على أمر خطير قائم إلى الآن و هو الخيانة، خيانة الداخل المتمثلة في إبراهيم آغا و الداي حسين اللّذين كانا سبباً مباشراً في هزيمة الجيش الجزائري و بالتالي دخول المستدمر، ثم خيانة اليهودي كوهين و مدبب الأنف الذي يمثل الزوَّاف الذين كانوا جيشاً يقف في صف فرنسا ضدَّ جيش الأمير عبد القادر. و منه تكتمل صورة الأفاعي أمام القارئ؛ التي تترصّد بهذا الوطن. أمّا لقاء شامخة بأخيها شامخ – الذي

---

[22] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص249.

[23] بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ط1،2005، ص 294.

[24] عبد الله إبراهيم، التخيل التاريخي، ص7/6.

بحثت عنه طوال رحلتها بل قبلها، شامخ البطل الشبح الذي حارب المستدمر مذ وطئت قدماه هذه الأرض الطيبة - عند الأمير له رمزيته الكبيرة و هي لمُّ شمل الإخوة و الاتحاد اللّذان مثلهما الأمير. و صوّر للمتلقي خيانة بعض القبائل للبطل و تعاونها مع فرنسا؛ ممّا أثر على خطته في حصار العدو، و إفشال مخططه في تجويع الجيش الفرنسي التي نجحت إلى حدّ ما لولا الخيانة، كان عبقرياً رغم صغر سنه فأسس الدولة الجزائرية و نال اعتراف العدو الفرنسي قبل الأصدقاء؛ و الأدهى الذي حيّر فرنسا أنه أقام عاصمة متنقلة بعد أن كانت في مدينة معسكر و خطط لهذه الدولة وفكر في كل التفاصيل " و نصُكُّ العملة، و ننشئ الدواوين و الإدارات. و نعين الولاة و القضاة، و نؤسس الجيش النظامي المحترف المجهز بأحدث الأسلحة، و نقيم العلاقات مع دول العالم المتحضر..."[25] . و حنكته و ذكاءه كانا سببا في إقالة جنرالات عدَّة في الجيش الفرنسي، و ما ميَّز الأمير عن عدوه هو أخلاقه العالية و إتباعه لتعاليم الدين الإسلامي فقد كان بارّاً بوالديه " أنهى الأمير عبد القادر غسل قدمي أمه لالَّة فاطمة الزهراء..."[26] ، كان حرص المبدع على تسليط الضوء على هذه الجزئيات في حياة شخصية الأمير حتى يكون قدوة لجيل تاه و لم يجد سوى أبطال الغرب ليقلّدهم، و كأنه يخاطبهم هاهو قدوتنا جميعاً بطلا حقيقياً و ليس مزيّفاً، و نجد الأمير في موضع آخر يعلّم جنوده آداب الحرب و أخلاق سيد الخلق صلى الله عليه و سلم فيقول لهم "أيها الأبطال، إنكم لستم طلاب حرب، و لكنها فرضت عليكم، و لم تتمنوا لقاء عدو، و لكنه سعى إليكم، لا تقتلوا جريحاً و لا أسيراً و لا تمثلوا و لا تحقدوا، أنتم أصحاب حق و حملة رسالة، الحرب عندكم شرف، و القتال عندكم بطولة."[27]، أمَّا نهايته فقد ساهم فيها بنو جلدته أكثر من الفرنسيين ذاتهم، ثم نجد أن الروائي لم يركز على اعتقال الأمير و نفيه إلاَّ قليلاً؛ تعبيراً منه عن غصَّة في قلبه اتجاه مصير هذا البطل عكس ما حدث مع الداي حسين فشتان بين الثرى و الثريا؛ حين صوَّر لنا تفاصيل توقيع المعاهدة و الذُّل و الهوان اللّذان أصابا الداي حسين، و قد كانت شامخة حاضرة في وداع الأمير؛ حزينة تلف تراب هذا الوطن

[25] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص269.

[26] نفسه، ص322.

[27] نفسه، ص335.

" هذا إليك خاصة أيها الأمير، لقد ضمّخته بدموعي. احتضنه و أجهش يبكي."[28] مشهد مؤلم صوّره جلاوجي للأمير وما تَركُه لسيفه أمانة عند شامخة -أملاً في عودته للجهاد في أرضه -و إعطاها برنسه إلاّ دلالة على أن الكفاح يجب أن يتواصل و أنّ التشبث بالأرض و بالهوية هي رسالة من الأمير إلى كل الأجيال، و بالتأكيد هذه الحادثة هي من نسج خيال المبدع و هذا حتما من أجل هدف ما فـ" هل يمكن أن يكون الأدب مجرد متعة، منفصلاً عن ذات مؤلفه؟ و هل يمكن أن يكون الأديب خلواً من رسالة فكرية يسعى لتبليغها إلى جانب رسالته الجمالية؟ "[29]. بالتأكيد لا بل يجب أن تكون العملية الإبداعية هادفة و لها رسالة دون إغفال للجانب الجمالي، كما لا يفوتنا أن ننوه إلى أن جلاوجي في بعض المواقف ينسحب جانباً و يترك الحرية المطلقة للقارئ؛ في مواصلة الرواية مع شخوصه، فهي التي تحكي و هي التي تجذب المتلقي، ليأخذ قسطاً من الراحة أو أنه يهرب من هذه الأحداث الدامية و المجازر الأليمة التي تملأ أرجاء النص؛ فيتخلى عن شرف السرد و يترك الشخصيات تعبر عن آلامها و عن عذابها، بل يترك آلة التعذيب تنخر آذان القارئ فيدخله في عملية الحكي لأن المتخيل ما هو إلاّ " وسيط لفعل القراءة و التأويل الذي يقوم به القارئ للعمل الأدبي."[30]

تشكل الزمن/المكان:

و نلاحظ أن رواية عناق الأفاعي تعتمد على الرحلة و التنقل بين الأمكنة، و هذا ما جعل المكان هنا مرتبطٌ بالزمن فـ" الانتقال عبر الزمن من خلال محطات تاريخية، مكانية يكون قادراً على مد السرد بالكثير من الفعاليات."[31] و إذا تتبعنا زمن الرواية إنه يتوزع على عدّة أزمنة من الحاضر أو ما يطلق عليه زمن الكتابة؛ و هذا ينقسم إلى قسمين قسم قبل كتابة الرواية أي الزمن الذي تسلم فيه المبدع المخطوط؛ و الثاني بعد كتابة الرواية و كلها تدخل ضمن الزمن المتخيَّل لأن حوبة و المخطوط ما هما إلاّ من نسج خيال المبدع، فيجعل

---

[28] نفسه، ص500.

[29] عز الدين جلاوجي، قبسات سردية(قراءات في المشهد السردي)، منشورات المنتهى، ط1،2021، ص9 .

[30] آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية، ص31.

[31] مصطفى الضبع، استراتيجية المكان،(دراسة في جماليات المكان في السرد العربي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2، ص 50.

المتلقي يبحث داخل متنه عن الزمن و عن تمفصلاته، و الواضح هنا أن علاقة الزمن بالمكان علاقة مد وجزر، فكل منها يطمح للسيطرة على مفاتيح الحكي فيتأرجح السرد بينهما و ذلك للضرورة الحكائية، ثم ينتقل بنا إلى الماضي الذي ينشده المبدع داخل هذا النص الذي يمثل زمن الحرية و الانتصار؛ فيعود بالقارئ إلى فترة ما قبل دخول فرنسا؛ إلاَّ أن هذا لا يمكن تحقيقه خارج وصف جمالي للمكان فيأخذنا إلى أمكنة توحي بحضارة و رقي و تميّز؛ أمكنة أبدع في وصفها مثل وصفه لقصر شامخة "رواق طويل تحضنه أعمدة مفتولة بإتقان، تبدأ فسيفساء لألوان براقة جذابة و قد تعاشقت عليها حبيبات مرمر لماع، ثم تنتهي ناصعة البياض، يعرش عليها زلّيج ضاحك الألوان، متراقصُ الأشكال، يتشابك بشكل بديع منتصف السقف، محدثاً تموّجات أشبه بلجج البحر و هي تنكسر عند الشاطئ..."[32] فهو يرى فيها ذاكرة الجزائر الجميلة؛ الجزائر التي كانت متطورة و لها معمار يدل على حضارة كبيرة؛ فاعتماد الروائي على الوصف هنا له بعده و رمزيته و ليس هدفاً في حد ذاته لأننا مع " تقنية وصف المكان، فإما أن تتم العناية بالمكان، و إما أن يتضاءل أو يتخذ شكلاً جديداً مخالفاً للأساليب في الكتابة الروائية."[33] و لا يمكن أن نستحضر الزمن الماضي خارج المكان هذا الأخير الذي تدركه الذات بالوصف؛ لذا تلازم الزمن و المكان داخل هذا المتن، و هو لم يقتصر على الوصف فقط في تقديم أمكنته بل اتخذ عدة أشكال؛ كأن يضع للرَّايس حميدو قبراً فارغاً للدلالة على نسيانه و نسيان ما قدمه لهذا الوطن؛ و هذا لأن " الروائي يستثمر أشياء المكان لإنتاج دلالات واضحة تغذي نصه و تمثل منعطفات مشعة في عالم النص."[34] فالقبر باعتباره دلالة على مكان يوضع فيه الأموات فهو هنا وضعه فارغاً، حتى تبقى ذكراه خالدة فوجود الجثة يعني موت، و هو يريد إعادة إحياء ذكرى الرَّايس من جديد فيستعمل هذا المكان في استرجاع الزمن (analepse) و رفضه لموت رمز من رموز هذا الوطن على الأقل

---

[32] عز الدين جلاوجي، عناق الأفاعي، ص 16.

[33] حميد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر و التوزيع،ط1991،1، بيروت- لبنان،ص 67.

[34] مصطفى الضبع، استراتيجية المكان،ص 50.

في الذاكرة، إذن القبر الفارغ هنا ما هو إلاَّ استعارة لجأ إليها المبدع للتعبير عن ذاكرة طواها النسيان فأراد إعادتها و هذا ما يسميه حسن نجمي بالاستعارة الفضائية[35].

أمَّا شامخة التي قاومت و لم تيأس و اتجهت شرقاً بحثاً عن مقاومة أخرى،لم تتخلص من الأشقر الفتى المتغطرس الذي ظلَّ يطاردها و يحلم بالقبض عليها بل و بيعها في سوق النخاسة كما باع خالها والده و عشيرته، انتقاماً لهم، فشكلت رحلة البحث هذه " مجازاً لمشروع روائي ينوس بين مسافات مختلفة"[36] توسع المكان و الزمان؛ إذ من خلالها يسترجع الأشقر زمناً ماضياً تعود به ذاكرته إلى مكان غير المكان، فيتمطط الزمان و المكان و لا يبقى حبيس اللحظة؛ مما يعطي للزمن سلطة أبوية على المكان، إذ أنَّ " الزمن الذي يساوي مكانه سجن، و في المتخيَّل ما يحرر الزمن من مكانه و يجعله أكثر اتساعاً."[37] و بالتالي أصبح الزمن حراً طليقاً لا يخضع لسلطة الواقع. إلاّ أن الفضاء الكلّي للرواية " أوسع و أشمل من المكان، إنه مجموع الأمكنة التي تقوم عليها الحركة الروائية المتمثلة في سيرورة الحكي سواء تلك التي تمَّ تصويرها بشكل مباشر، أم تلك التي تُدرك بالضرورة، و بطريقة ضمنية مع كل حركة حكائية."[38] فهو هنا يشمل الجزائر كاملة إذ احتوت رحلة شامخة أغلب هذه الأمكنة مما جعل هذا الفضاء كبيراً رحباً؛ يحتمل أحداثاً كبيرة و شخوصاً متعددة، لكل رحلة كانت هناك قصة و شخصيات تميُّزها عن الرحلات الأخرى لها خصوصيتها و طبيعتها " و وسعت الرحلات المكان و الزمن معاً..."[39] و ساهمت الرحلة بشكل كبير في عملية الحكي و أصبحت حافزاً له، و ساعدت على تناوب كل من الزمن و المكان على هذه العملية الحكائية، فالرحلة هي التي منعتنا من فصل الزمن عن المكان، لأنها تشكل خطاباً

---

[35] حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل و الهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي (دراسة نقدية)، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص34.

[36] الرواية و تأويل التاريخ، ص 19.

[37] نفسه، ص 18.

[38] حميد لحميداني، بنية النص السردي، ص64.

[39] فيصل الدرَّاج، الرواية و تأويل التاريخ(نظرية الرواية و الرواية العربية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، بيروت- لبنان، ط1، 2004، ص 18

آخر داخل الرواية فالمبدع وظفها لغرض إعادة ذاكرة المقاومة في كل ربوع الوطن ينشد من خلالها الوحدة الوطنية، و يبين للأجيال أن كل الجزائريين انتفضوا ضد المستعمر الغاشم، فهو يعود بالقارئ إلى الماضي لكنه بوصفه للمكان يجعله يعيش اللحظة مع الشخصيات و الأحداث " إن ماضي السرد (أمس) يدفعها إلى استعادة الزمن المنتهي، و إعادة ترتيبه و ملء فجواته. و هذه الاستعادة بما هي استحضار زماني تتم بواسطة " التخييل"، أما الآن المقدم من خلال الوصف، فإنه و إن تم في زمان مضى، فيضعنا أمام "صورة" المكان الماثل أمام العين: " التجسيد"."[40] فهو بوصفه لهذه الأمكنة و كأنه ينقل المتلقي إلى تلك اللحظة يعيشها بكل تفاصيلها؛ أي يعود به إلى الزمن و يجعله يفرح و يتألم و يحزن بل و يبكي خاصة مع المجازر التي وصفها بكل تفاصيلها فهو يجسد الأحداث و الأماكن بل يجسد الألم.باعتبار شامخة هي الشخصية الرئيسية فإننا نجدها تواصل كفاحها؛ و حفاظها على أبناء شامخ و تضحي بنفسها من أجلهم و تسلمهم سيف الأمير لمواصلة الكفاح بين الأجيال، أبناء شامخ الذين كان لهم دورهم في الرواية الأولى " حوبة" و بهذا تتحقق مقصدية الثلاثية في تلاحق الأجيال داخل العمل الروائي (الثلاثية). و تظهر في الأخير حوبة من أجل أن تستلم الرواية في حلّتها الجديدة؛ إلاّ أن المبدع يتفاجأ عندما تدُلُه على النجم الذي تحولت إليه شامخة؛ و يكتشف حجم الشبه الكبير بين شامخة وحوبة، و هنا نجده يضع لهذه الشخصية رمزية الجزائر حبيبته التي تلازمه في كل كتاباته، و يعطي إشارة للعدو قبل الصديق أن الجزائر خالدة لن تموت، و هنا نجده يتلاعب بالزمن يسترجع و يستبق كيفما شاء؛ فبعدما كانت شامخة في عصر انتهى و أصبح من الماضي؛ أحضرها و ألبسها ثوب حوبة في عصر ما بعد الاستقلال بعقود.

خاتمة:

إن عناق الأفاعي رواية من الحجم الكبير ؛إذ يفوق عدد صفحاتها الست مائة صفحة، و لا يمكن بأي حال من الأحوال الإحاطة بكل شخصياتها و أمكنتها و الزمن فيها؛ لكننا ركزنا على جزئية فقط و قدمناها للقارئ، فهذه الرواية عبارة عن بناء يرتكز على أعمدة

[40] سعيد يقطين،السرد العربي(مفاهيم وتجليات)، الدار العربية للعلوم ناشرون،بيروت-لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة-الجزائر، ط1،2012،ص172.

الواقع و تَحُفه أسوارٌ من المتخيل، و هذا ما أعطاها جمالية خاصة، فلا هي اعتمدت على التاريخ و الحقيقة و صورتهما تصويراً دقيقاً و لا هي اتكأت على الخيال و سرحت بالقارئ إلى آفاق متخيّلة بعيدة. هي بلورة للوعي حول ضرورة إثراء الواقع التاريخي الجزائري، و محاولة لإحياء أمجاد الثورة الجزائرية في نفوس الأجيال القادمة و هي رسالة للإنسانية ككل، حول أخلاق المقاومين الجزائريين و حول رسوخ فكرة حب الوطن في قلوب كل أبناء هذا الوطن، فالكاتب لم يستثن فئة من فئات الوطن و جعل وحدتهم هدفه فانتقل بالقارئ من الوسط إلى الشرق ثم إلى الغرب نزولا للجنوب الكبير فاستعمل المكان و دلالاته الفنية في إيصال رسالته؛ و انتقل بين الأزمنة حتى يصور الماضي و يحييه لأنه من لا ماضي له لا حاضر و لا مستقبل له، فعلا كانت له رسالة أولها وحدة هذا الوطن و ثانيها تحذيره للأجيال من خبث أعداء هذا الوطن أينما كانوا و إعادة إحياء أمجاد الجزائر و أبطالها، و في الأخير رسالة فنية و جمالية إبداعية تمجد اللغة العربية و تأصل لها فهو لم يستعمل إلاَّ اللغة العربية الفصحى و لم ينحرف عنها قيد أنملة، دلالة على شدَّة ارتباطه بأصالته. و أهم ما تنفرد به هذه الرواية هو تماهي التاريخ مع السرد داخلها لدرجة يصعب فيها على القارئ التمييز بين ما هو حقيقي و ما هو من نسج خيال المبدع، فتاريخ الأمم يحتاج حقًا إلى توثيق تاريخي إلاَّ أنها بالسرد تكون لها سمات جمالية تجذب القراء عكس ما يتميز به النص التاريخي الجامد، فحيوية هذه النصوص السردية هي التي تضفي على التاريخ لمسة فنية تجعله راسخاً في أذهان الأجيال، ولعل ما وصل إلى الشعوب عن أمجادها بواسطة الفنون و الحكايات كان أرسخ مما جاء بين طيات كتب التاريخ، ذلك لطبيعة البشر في حب السرد و عشق الخيال و الهروب من الحقيقة التي يقدمها المؤرخ؛ بطريقة أكثر ما توصف به هو الحياد و هذا لا يعني أننا ننفي دور التأريخ و أهميته في حياة الشعوب.